الأستاذ ماهر الحاج علي

ذكريات عبرت ..

كان ذاك الأصيل في الصّيف الماضي ، رخيّ الهواء ... وكنت مستلقياً على متّكأ وثير على الشّرفة الشرقيّة المطلّة على جبل الرّويس ، أسرّح الطّرف في أشجار الصّنوبر المنتظم الصّفوف أدراجاً منحدرة حيناً وعاليةً أحياناً حتّى زرقة السّماء ... فترامى إليّ في سهوتي هذه ، كلام من زوجتي وابنتي وأبنائي ، فهمت منه أنّهم يرغبون في الخروج من المنزل للتّسوّق ... قاصدين إخراجي من فردوسي الحالم وإعمال فكري في موضوعات أدبيّة كنت آخذاً في إعدادها . وراحوا يزيّنون لي ما عسى أن أجد في ذلك المشوار من راحة ومسرّة ... فلم أدخل معهم في جدال ، ولم أجب بأنّني وجدت راحتي في انسراح نظري ، بل لجأت إلى الصّمت ولم أردّ على التّرغيب إلّا بالإبتسام ، حتّى قطعوا الأمل من انصياعي لهم .. فدار محرّك السّيّارة ومضوا في سبيلهم ..

ساد السّكون في البيت ، لا صوت ولاجلبة ، إلّا زقزقة أسراب الدّواري . وعادت إليّ أحلام جديدة من الطّبيعة الحيّة ، ممّا يطير ومايسبح وما ينام وما يزحف وما يجري على قوائم . واختلط العلم والتأمّل والأدب في ذاتي ... وكان امتزاج غريب وسهو ليس له نهاية ... لا أدري كم ساعة سهوت ، بل كلّ ما أدريه أنّ محرّك السّيّارة جأر ونفث ووقف ... ليعود البيت إلى دنيا الصّوت والحركة ..

ودنت ابنتي منّي ، وداعبت يدي ، فابتسمت لها راضياً ، حتّى راحت تحدّثني عن كهل خفيف الظلّ ، ما كاد يلمحها حتّى تفرّست نظراته بها .. ولمّا ارتابت من تلك النّظرات ابتسم لها ابتسامات إنسان قريب قائلا : "إن لم يخطئ ظنّي ، ألست إبنة الأستاذ ماهر؟ " لتجيبه بنظرة متعجّبة .. فأكّد لها أنّه عرفها من ملامح أبيها الّتي لا تفارق خياله . وكيف ينسى الإنسان

أخاه ؟ إنّ السّنين الثلاثين الّتي فرّقت وأثّرت لا يمكنها أن تأتي على الملامح الأصيلة . فأنت اليوم أشبه بأبيك الّذي عرفت في ذلك الزّمن السّعيد . ومضى يقول : سأصف لك أباك كما أتخيّله اليوم . وعندئذ سيتأكّد لك أنّني عرفتك يا ابنة أخي .. " والدك اليوم يشكو من الصّلع ، ولم يبق من شعر أسود في وجهه سوى حاجباه وأهداب عينيه .. عيناه ! يا لهما من عينين واسعتين ، كانتا تضحكان أكثر من فمه ... وبشرته البيضاء تضاءل فيها إشراق الحمرة الصّافية ، وإن لم يترهّل خدّاه كما هو شأن الضّعاف الوجوه ... " ورمته ابنتي بنظرة فاحصة ، فبدا لها أنّه يصف الكثير من ذاته بلونه الشّاحب وعينيه الذّابلتين .. ولمّا لم تتمالك الصّبيّة الأمر هتفت : " من أنت يا أستاذ ، ومن قال لك أنّه كذلك ؟ " فهزّ رأسه وقال : " المعلم يا ابنتي ، خاصة من كان ذا ضمير حيّ مثل أبيك ، فهو لا بدّ من أن يعطي كلّ شيئ في عقله وقلبه ، يعطي مع العلم دمه وشراييه ودقّات قلبه ، يعطي نور عينيه ، ولون خدّيه وينسى أنّه يعيش لذاته أو لعائلته .. إنّه يعطي يا ابنتي كما تعطي الشّجرة على مفترق الدّروب ، فلا يميّز بين الّذين يمدّون أيديهم وبين الّذين يقطفون . والفرق بين المعلّم والشّجرة هو أنّ المعلّم يتألّم لكي يجتني تلاميذه ثمار عقله وروحه وقلبه . وفي كثير من الأحيان تنتثر ثماره على رؤوس تلاميذه وتطرق آذانهم بقوّة وإلحاح ، فيتألّم لأنهّا لا تدخل إلى قلوبهم ... "

وتنهّدت الصّبيّة من حسرة . فتبسّم الكهل وأضاف : " لا تقلقي يا زهرة عمر أبيك .. حسبُك أن تسمعي ضحكاته ترنّ في البيت ، هذا المساء ، عندما تخبرينه عنّي .. ولا بدّ له من أن يعرف من هو عمّك هذا الّذي استوقفك وتحدّث إليك ... لمحتك ، فشعرت بالأخوّة الصّادقة تعيش في داخلي من جديد ... ولمعت في مخيّلتي تلك الصّور الضّاحكة الحيّة ، والّتي كانت من أغنى سنيّ العمر بنشاط الرّوح ومرح الشّباب وصدق المودّة . كان والدك ، رفيق عمل وصديقاً، وكان أحبّ إليّ ممّن شاركوني أحشاء الأمّ وحنان الأبّ وحمايته وعرق جبينه ."

ثمّ مدّ يده السّمراء الدّاكنة وتناول بها يد الإبنة مصافحا وهو يقول : " سلّمي على أخي وزميلي وقولي له : انتظر نبأ عن أخ يحفظ لك في قلبه أصدق المشاعر .. "

وفرغت فتاتي من الحديث وفي عينيها دموع تترقرق ... " هل عرفته يا أبي ؟ " فربّتُّ على يدها وأجبتها : " عرفته يا بنيّتي ! منذ زمن لم نلتق ، وما أراه الآن هو أنّه قد صوّر نفسه في مرآة صافية " وفيما أنا غارق في أعماق ذلك الماضي ، سمعت وطء أقدام على الدّرج يمازجه تهامس . وحين فُتح الباب تسارعت دقّات قلبي .. لكن ضحكات أعرفها رنّت في الدّار، وإذا أنا أمام صديقي وزميلي المعلّم خليل وعائلته . حدقت مليّا في وجهه فإذا هو شاحب ذابل وقد فعلت فيه السّنون فعلها ... تعانقنا بحرارة وعاشت أسرتانا ساعات حلوة مع حديث الشّباب وتضاحك الأتراب ...